جامعة السلطان قابوس
مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية

Sultan Qaboos University
Journal of Arts & Social Sciences

# الأدبُ الجغرافيّ العربيّ
# مفهومه وأنماطه وخصائصه
# عند المستشرق الروسي إغناطيوس كراتشكوفسكي

**حسين ترّوش**

**أستاذ التعليم العالي**
**قسم اللغة العربيّة وآدابها، كلية الآداب واللغات،**
**جامعة محمد لمين دبّاغين، سطيف ٢ الجزائر**
terrouchehocine@yahoo.fr

**تاريخ الاستلام: ٢٠٢١/٠١/٢٤**
**تاريخ القبول للنشر: ٢٠٢١/١١/١٦**

# الأدبُ الجغرافيّ العربيّ
# مفهومه وأنماطه وخصائصه
# عند المستشرق الروسي إغناطيوس كراتشكوفسكي

حسين ترّوش

**الملخص**

**مازال الأدب العربيّ القديم يكشف عن كنوز فنيّة بديعة، تبرز غنى التراث العربيّ وحيويته، وتشعّب اتّجاهاته، ومن أهم اكتشافات النصف الأوَّل من القرن العشرين، الأدب الجغرافيّ العربيّ، وهو باب مهمل في الدراسات العربيّة الحديثة للتراث، ويعود الفضل في لفت الانتباه إليه إلى طائفة من المستشرقين الشرقيين والغربيين، في مقدمتهم المستشرق الروسي إغناطيوس كراتشكوفسكي، والمستعرب الفرنسي أندريه ميكيل. وهذا البحث يتغيّا الكشف عن ماهية هذا الجنس الأدبيّ، ويهدف إلى عرض أهمّ أنماطه عبر مراحل تطوّره الطويلة والمتشعّبة، مع التركيز على أهم خصائصه الفنيّة التي جعلت منه شكلا من أشكال الكتابة الأدبيّة لا الكتابة العلميّة، وذلك من خلال كتاب (تاريخ الأدب الجغرافيّ العربيّ لكراتشكوفسكي)، فقد اجتهد هذا المستشرق في جمع مادة زخمة من عدد كبير من المصنّفات العربيّة، وقام بتصنيفها تاريخيًّا؛ لتتجاوز المرحلة المدروسة تسعة قرون كاملة، من القرن الثالث إلى الحادي عشر الهجريين، وهو ما جعل من كتابه مرجعا متميّزا للأدب الجغرافيّ العربيّ. وقد أسهم كراتشكوفسكي في توسيع آفاق الدرس الأدبيّ والنقديّ من خلال توجيه الباحثين المعاصرين إلى حقل الأدب الجغرافيّ العربيّ القديم، فقد كشف عن غنى هذا التراث بالمادة العلمية التي تنتظر إماطة اللثام عن خباياها العلمية والأدبيّة المتميّزة.**

**الكلمات المفتاحية: الاستشراق؛ كراتشكوفسكي؛ الأدب الجغرافيّ؛ الأنماط؛ الخصائص.**

# Arab Geographical Literature:
# Its concept, patterns and characteristics
# According to the Russian Orientalist Ignatius Krachkovsky

Terrouche Hocine

Abstract

Ancient Arab literature still reveals beautiful artistic treasures that highlight the richness and vitality of Arab heritage and its bifurcation of trends. Being a neglected chapter in modern Arab studies of heritage, Arab geographical literature, one of the most important discoveries of the first half of the twentieth century, drew the attention of a group of orientalists in the east and the West that was headed by the Russian orientalist Ignatius Krachkovsky. This research aims to uncover what this literary genre is. In addition, through Krachkovsky›s book on the history of Arab geographic literature and a focus on the literature's most important technical characteristics that made it a form of literary writing rather than scientific writing, the research aims to present its principal patterns through its long and complex development stages. Krachkovsky endeavoured to collect abundant material from numerous Arab compilations and classify them historically, so that the studied period exceeds nine whole centuries, from the third to the eleventh century AH, making his book a distinct reference for Arab geographical literature Krachkovsky has contributed to expanding the horizons of the literary and critical lessons of ancient Arab geographic literature by directing contemporary researchers to this field. He has revealed the richness of this scientific material that is waiting to unveil its many scientific and literary mysteries.

Keywords: Orientalism; Kratchkovsky; Geographical literature; Styles; Characteristics.

**المقدّمة**

حفل التراث الأدبيّ العربيّ بالعديد من الأشكال الفنيّة الجميلة والمؤثّرة، غلب فيها الشعر على النثر الفنّي، واحتلّ مكانةً متميّزة عند المتلقي العربيّ قديما وحديثا، وقد ساعد تركيز الدرس النقديّ وتاريخ الأدب على تأكيد سلطة الشعر، غير أنّ المدارس الاستشراقية في العصر الحديث استطاعت أن تغوص في أعماق الأدب العربيّ القديم، وأن تكشف عن أشكال كتابة فنيّة مغمورة في ثنايا المصنفات الأدبيّة الكثيرة.

ومن أهمّ الدراسات الاستشراقية التي اهتمّت بهذا التراث المهمل كتاب (تاريخ الأدب الجغرافيّ العربيّ) لإغناطيوس كراتشكوفسكي، الذي بحث عميقا في أحد أشكال الكتابة التي جمعت بين ذاتية الأدب وموضوعية علم الجغرافيا؛ ليكشف عن نصوص غنية ضمن هذا السياق الذي انفرد التراث العربيّ بالكتابة فيه باعتراف كراتشكوفسكي نفسه.

والإشكالية التي يطرحها البحث هي التحديد المفاهيمي للأدب الجغرافيّ العربيّ عند كراتشكوفسكي، والكشف عن أنماطه المختلفة، مع التركيز على أهمّ الخصائص الفنيّة التي جعلت من هذا النوع من الكتابة أدبا، لا كتابة علمية جافة، مستعينا في كلّ ذلك بالمنهج الاستقرائي الذي يغوص بالبحث في أعماق كتاب (تاريخ الأدب الجغرافيّ العربيّ)، مفكّكا فصوله العديدة للبحث عن هذه الأنماط وهذه الخصائص الأدبيّة.

وإذا كانت الحدود المرجعية الأساسية لهذا البحث تتأسس على كتاب (تاريخ الأدب الجغرافيّ العربيّ)، فإنّ مجال البحث فيه يتعدّى ذلك إلى كثيرٍ من المصنّفات الأدبيّة العربيّة القديمة، التي تمتدّ زمنيًّا إلى تسعةِ قرون من التأليف في هذا الفنّ، من القرن الثالث إلى التاسع الهجريين.

ومن أهم أهداف هذا البحث تعريف القارئ العربيّ وغيره بالأدب الجغرافيّ العربيّ، وبأهمّ كتّابه في المشرق والمغرب، والتعريف بالمصنّفات الجغرافية التي تنوّعت عناوينها واختلفت حقول الدرس فيها، بين الجغرافيا المحلية البسيطة، وجغرافيا العالم المعروف آنذاك، وبين الرحلات داخل البلدان الإسلامية والرّحلات إلى حدود العالم المعروفة شرقا وغربا.

وقد توزّعت زوايا هذا البحث الأساسية على جملةٍ من النقاط المتكاملة التي انطلقت بداية من تحديد العلاقة بين كراتشكوفسكي والأدب الجغرافيّ العربيّ، إلى البحث في تطوّر الأدب الجغرافيّ وأهمّ أنماطه، وصولا إلى الأهداف الخاصة لهذا الفنّ، مع التركيز على الخصائص الفنية التي جعلت من الكتابة الجغرافية شكلا أدبيًّا راقيًا.

**١- إغناطيوس كراتشكوفسكي)*( (والأدب الجغرافيّ العربيّ:**

لم يحبّذ كراتشكوفسكي (Ignatius Krachkovsky) (١٨٨٣-١٩٥١م) قطّ مصطلح (الاستشراق الروسي)، وعمل بدلا منه على إشاعة مصطلح (الاستعراب الروسي) (عبد الفتاح، ٢٠٠٠: ٤٨)، وهو ما يشير إلى التحديد الدقيق لحقل الدراسة الذي اشتغل هذا العالم الروسي على نتاجاته، ألا وهو الحقل العربيّ الذي يفصل كراتشكوفسكي بينه وبين حقل الشرق الذي تجتمع بين ثناياه ثقافات كثيرة بنتاجاتها المتعدّدة.

إنَّ تمييز كراتشكوفسكي للثقافة العربيّة وما أنتجته من علوم ومعارف - نابع من إيمانه بأنّ « المكانة المرموقة التي تشغلها الحضارة العربيّة في تاريخ البشرية- لهو أمر مسلم به من الجميع في عصرنا هذا، وقد وضح بجلاء في الخمسين عاما الأخيرة فضل العرب في تطوير جميع تلك العلوم التي اشتقت لنفسها طرقا ومسالك جديدة في العصور الوسطى، ولا زالت حية إلى أيامنا هذه- أعني علوم الفيزياء والرياضيات والكيمياء والبيولوجيا والجيولوجيا- أمَّا فيما يتعلق بالأدب الفنّي العالميّ فإن العرب قد أسهموا فيه بنصيب وافر يمثل جزءًا أساسيًّا من التراث العام للبشرية، كما امتد تأثيرهم كذلك إلى عدد كبير من المصنفات والفنون الأدبيّة التي نشأت في بيئات غير عربية» (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ١٧).

ومن بين أكثر الحقول المعرفية التي شغلت هذا الباحث الروسي وكثيرًا من المستشرقين الغربيين (علم الجغرافيا) الذي غاص في أعماقه الفكرية وتتبع أدوات علمائه الإجرائية؛ ليخرجه إلى آفاق العلم الرّحبة من خلال كتابه الشهير (تاريخ الأدب الجغرافيّ العربيّ).

ويشير كراتشكوفسكي إلى الهدف من تأليفه لهذا الكتاب قائلًا: «وليست الغاية الأساسية منه تقديم عرض عام لتاريخ الجغرافيا بقدر ما قُصِد به عرض تاريخ الأنماط الأدبيّة المرتبطة بعلم الجغرافيا في صورة أو أخرى» (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ١٦)، أي أنّ الغرض الأساس من هذا العمل القيّم هو البحث في أشكال الكتابة العديدة والمتنوّعة التي ربطت بين حقلين مختلفين في الظاهر هما (الأدب والجغرافيا).

وكانت نتيجة المزج بين طرفي هذه المعادلة غنيّةٌ، فقد حوى الكتاب بين دفّتيه نصيبا وافرا من المعرفة الأدبيّة والمعرفة الجغرافية معا، أصبح معها «الكتاب يقدِّم في آن واحد نصيبا متكافئا لكلٍّ من الأدب العلمي والأدب الشعبي، ويجتهد في أنْ يُلِمَّ بأطراف الجغرافيا الرياضية والوصفية كما جَهِد في الإحاطة بالجغرافيا العامة والإقليمية. وهو لا يُهمل قصص الرحلات حتى تلك التي تحمل طابعا أدبيًّا صرفا بل وأسطوريا» (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ١٦).

وانطلاقا من هذه الحقول العلمية والأدبيّة، حدّد كراتشكوفسكي جملة من المصطلحات التي نتجت عن هذا المزج بين هذين الحقلين «ففيما يتعلّق بالجغرافيا الفلكية ثبت في العادة اللفظ اليونانيّ «جغرافيا»، الذى تُرجم أحيانا في صورة أقرب إلى الفهم هي «علم الأطوال والأعراض» أو «علم تقويم البلدان»، أما الجغرافيا الوصفية فقد أطلق عليها اسم «علم المسالك والممالك»، وفى الحالات التي يدور فيها الكلام على مراحل الطرق بصورة خاصة أطلق عليها اسم «علم البرود»، وإذا غلب الجانب الكوزموغرافى (Cosmographic) أي في وصف الكون بما يصحبه من ميل

واضح نحو العجائب والغرائب فقد استعملت تسمية «علم عجائب البلاد» (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ٢٠).

إنَّ مـا يثير الاهتمـام في كتاب (تاريخ الأدب الجغـرافيّ العربيّ)، إضافة إلى هذه المصطلحات والحقول، احتواؤه على تلك الأشـكال الأدبيّة الكثيرة التي استعان أصحابها بأساليب متنوّعة لصياغتها في إطار أدبيٍّ/ علمي، من خلال التركيز على جملة من الخصائص الفنية التي جعلت من الأدب الجغرافيّ العربيّ شكلا إبداعيًّا راقيا.

**٢- مفهوم الأدب الجغرافيّ:**

اسـتعمل لفظ (الجغرافيا) على شـكل مقطعين (جيو - غرافيا) وتعنـي وصـف الأرض أو صـورة الأرض، وهو عنـوان كتاب (بطليمـوس) (٩٠-١٦٨م)(**)، وبالتـالي فالجغرافية تعني وصف الأرض، وقـد ذهب الإغريق إلى إطلاق هـذا المصطلح على كلّ ما يتعلّق بالأرض وصورتها (خصباك، ١٩٨٦: ٨٤)، وهو من الألفاظ الدخيلة في العربيّـة، فقد حافظ علماء العربيّـة والجغرافيا على صورته اللفظيـة دون تغيير، وهو ما يدل على اعترافهم الضمني بأسبقية اليونان إلى هذا العلم واحترامهم أصولَه، من خلال اتخاذ هذا اللفظ وسمًا لهذا العلم.

والجغرافية العربيّة «نمت في بغداد بتشـجيع من الخليفة المأمون مع بداية القرن التاسع الميلادي، بغية معرفة المواقع الجغرافية من جهة، ولتسـهيل الأسفار من جهة أخرى، وقد ازدهرت الجغرافيا عنـد العرب من خلال معرفتهم لما وضعه بطليموس، وقد طبّقوه على الفلك، وقسّموا الأرض المأهولة إلى مناطق، ورسموا الخرائط» (جورج، ٢٠٠٢: ٢٥٧).

أمـا الأدب الجغـرافيّ فهو أحـد الأجناس الأدبيّـة التي ارتبط موضوعهـا بالكتابـة الجغرافية «ارتباطا حيويـا»، إذ تعلقت نصوصـه بوصف الأرض والإنسـان، وارتبـط منهجه بالتالي بالترحال للمشاهدة الشـخصية (رأي العين)، وقد تفرّع الأدب الجغرافيّ إلى أنماط كثـيرة، لكن أهم أنماطه على الإطلاق ثلاثة، نمط «أدب المسـالك والممالك»، ونمـط «عجائب البلدان (وصف الكـون)»، وهو النمط الـذي يطلِق عليه المسـتشرق الروسي كراتشكوفسـكي اسـم «الكوزموغرافيا»، وأخيرا نمط «أدب الرحلات» (بلقيدوم، https://www.anfasse.org).

وقد ميّز نـاصر عبد الرزاق الموافي بين طرفي هذا المصطلح؛ ليجعل الأدب أصـلا فيه، والجغرافيا فرعا، يقـول «أمَّا مصطلح (الأدب الجغـرافيّ) فإنّه يُقدِّم الأدب باعتباره الأصـل، ثم تأتي الجغرافيا كفـرع، إنه أدبٌ يتناول موضوعـا جغرافيًّا من وجهة نظر أدبية تفرضها شـخصية الرحَّال ومُكوِّناته الثقافية السابقة» (الموافي، ١٩٩٥: ٣٧)، وهـو ما أعطـى لهذا الجنس الأدبـيّ خصوصيته، وجعل نتاجاته تتنوّع أدبيًّا ومعرفيًّا من كاتب لآخر.

والأدب الجغـرافيّ العربيّ بهذا المفهوم يحيـل على «ذلك التراث الضخم من النصوص، سـواء كانت كتبا، أو رسائلا، أو تقارير مهمات، أو رحلات، أو حتى إشـارات، كتبها أدباء، أو رحَّالون، أو تجَّار، أو لغويون، أو فلكيُّون، عن مواضيع شـكّلت الجغرافيا جزءا لا يتجـزَّأ من مضمونهـا» (بلقيـدوم، https://www.anfasse.org)، وهـو التراث الذي لفت انتباه عدد غير قليل من المسـتشرقين الغربيين الذين أسّسـوا أطاريحهم الأكاديمية على مصنّفات مهمة منه.

والـذي أعطى الكتابة الجغرافية العربيّـة قيمتها العلمية، ولفت انتباه المسـتشرقين إليها، قدرتُها على المزج بين جملة من المعارف المختلفة، وهـو ما جعلها «تنفرد بين العلـوم الأخرى من خلال دراسـتها لخليط من الظواهـر المتنافرة التي تقـوم بتصنيفها والتوليف بينها؛ لتسـتطيع أن تقدّم لنا صورة واضحة متكاملة عنها» (خير، ٢٠٠٠: ٣١).

وعلماء الجغرافيا العربيّة كانـوا يَعُون هذه الخصوصية العلمية للكتابة الجغرافية، وهو ما جعل (أندريه ميكيل André Miquel (ولد عـام ١٩٢٩) يصفها بأنّهـا (علم كليّ) إذ إنّـه « لم يرد في الجغرافيا العربيّة ما يثبت أنّها لم تكن تعي شـمولها الظاهرات الطبيعية والبشرية والفلكية، وقد تغري عناوينها القارئ أحيانا، فتدفعه إلى الاعتقاد بوجود شيء من التخصص فيها، في حين تظل في الواقع علما كلّيا تتعـذّر تجزئته، وهي موحدة في جوهرها، لا تفصل الأرض أو الإنسـان عن الكائنات الأخرى، وبالتالي أخذتها مثلمـا أرادت أن تكون كليّة» (ميكيـل، ١٩٨٣: ١٠)، والذي ربط بـين فروع هذا العلم المختلفة هي الكتابة الأدبيّة التي صهرت تلك المعارف، الإنسـانية والطبيعية والفلكية؛ لتجمع في بوتقة واحدة، المتناقضيْن العلمي والفنّي، الموضوعي والذاتي.

**٣- تطور الأدب الجغرافيّ العربيّ وأهمّ أنماطه:**

يرى المسـتشرق الفرنسي (أندريه ميكيل) في كتابه «جغرافية دار الإسلام البشرية، حتى منتصف القرن الحادي عشر» أنَّ الجغرافية العربيّة التي كان مبدؤها الجغرافيا الرياضية، سرعان ما تحوَّلت وبآنٍ واحد إلى حقل تحريًّات، وإلى نمط أدبي حمل أسماء متعددة» (ميكيـل، ١٩٨٣: ٩٥)، وهـو ما يبرز تأثير العلمـي في الأدبيّ في الكتابة الجغرافية العربيّة، فعملية التأليف الواسـعة انطلقت مع هذا التـزاوج الذي أنتج المصنّفات المهمـة العلمية في مضامينها، والأدبيّة في لغتها وانتمائها الأجناسي.

وهو مـا يؤكّده (كراتشكوفسـكي) عند تحديـده بدايات الأدب الجغرافيّ العربـيّ، فقد لاحظ أنّ معرفة هذا العلم سـبقت بداية الكتابة عنه بفترة طويلة؛ لذلـك «فليس من الغريب ألاَّ نعثر على أيِّ أثر للجغرافيا بين العرب في ذلك العصر [يقصد العصر الأموي] ولكنها تندفع كسيلٍ جارفٍ في نهاية القرن الثامن، وهذه اللحظة بالذات هي التي يجب أن تُعتبَر بحق بداية الأدب الجغرافيّ العربيّ» (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ٧٤).

وقـد أطلـق كراتشكوفسـكي اسـم (المدرسـة الكلاسـيكية للجغرافية العربيّة) وهي المدرسـة التي اهتمت بوصف (المسالك والممالك) وصاحَبَها ظهـور المُصَوّرات الجغرافية أو (الخراطات) (كراتشكوفسـكي، ٢٠٠٨: ٢١٢)، وهو ما يثبت هذا التزاوج بين المضمـون العلمي والتعبـير الأدبيّ، فقد اجتمعـت في مصنّفات هذه المدرسـة الكلاسـيكية للأدب الجغرافيّ الكتابـات الواصفة للمسالك والممالك في البلاد الإسلامية وجاراتها من الأمم الأخرى،

والمصوّرات الجغرافية، وهي عبارة عن خرائط بدائية للمسارات التي كان يسلكها الجغرافيّون والرّحالون.

غير أنّ ما جعل من هذه النصوص الجغرافية أعمالا فنيّة قبل أن تكون علمية - كما يقول كراتشكوفسكي - هو «منهج الجغرافيا الوصفية التي ترتبط ارتباطا وثيقا بقصص الرحلات، وهو ما جعله، خاصة في بداية ظهوره، يرتبط بعلوم الشريعة وباللغة ثم بالأدب الفني» (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ١٨)؛ لذلك يمكن القول: إن النشأة الحقيقية للجغرافيا العربيّة كانت في بدايتها فنيّة، وهو الأمر الذي دفع المستشرق الألماني (ثيودور نولدكه) (Noldeke Theodor 1836-1930) إلى القول: «إنّ الجغرافيا في أكثر من ناحية، هي الجانب الأكثر إشراقًا في الأدب العربيّ» (الذاكري، ١٤٢٤هـ ١٤٣).

وقد ارتبطت الجغرافيا العربيّة في بداياتها الأولى بالشعر العربيّ وبالعلم بالأنساب، «فرواةُ الشعرِ وعلماء اللغة أسهموا إسهامًا فعّـالا في حفظ التاريخ؛ لأنّ الشعر كان ديوان العرب، وهناك تفاصيل عديدة في أحوالهم الجغرافية من رسْمِ مناطق نفوذهم ومساحات رعيهم، أما علم الأنساب أو الإخباريون فقد كانوا يحملون تاريخ القبائل ومساكنهم ومضاربهم، وهي بذلك تحمل مسحا جغرافيا لمناطق انتشار القبائل» (خزعل، ٢٠١٧: ١٧-١٨).

وقد سبق هذه المراحل مرحلة هامة يوضّحها (عبد الفتاح محمد وهيبة) في كتابه (جغرافية المسعودي بين النظرية والواقع من الأدب الجغرافيّ في التراث العربيّ)، وهي مرحلة (الأنواء)(***) فقد «ظهر هذا الأدب في كتب الأنواء التي اشتملت على أشتات من الملاحظات عن الطقس وظواهر الطبيعة ومنازل القمر متبوعة بتعليقات لغوية وغير لغوية» (وهيبة، ١٩٩٥: ١٣)، وقد عدّ (كراتشكوفسكي) الأنواء من أسس الأدب الجغرافيّ العربيّ، إذ «شيئا فشيئا تجمعت لدى العرب بشأن الأنواء معلومات مختلفة صاغوها في صور مسجوعة، ثبتت به على الدوام وتم تدوينها في وقت واحد مع الشعر الجاهلي على ما يبدو، وقد حفظت لنا أوصافًا مختصرة لجميع الأنواء الثمانية والعشرين» (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ٤١)، والملاحظ من تعبير كراتشكوفسكي أنّ هذه الأنواء ارتبطت بالشكل اللغوي الفني، وهو ما يؤسس للجغرافيا الفنيّة عند العرب.

وثالث الأشكال الفنية المؤسّسة للأدب الجغرافيّ العربيّ (جغرافيا الفضائل) (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ٦٨) أي ذكْر محاسن البلاد والشعوب «وقد تطوّر طراز الفضائل - المبني على ذكر مناقب البلدان المختلفة استنادا إلى الأحاديث النبوية الشريفة - إلى أنْ أصبح يُعرف باسم خطط المدن، والتي يمكن اعتبارها في الوقت الحاضر نظيرةَ جغرافية المدن، وقد أسهم المؤرّخون بقسط وافر من هذه الكتابات» (الكناني، ٢٠١٢: ٢٦٤)، وقد اعتبر كراتشكوفسكي «هذا النمط الجديد له صلة بالكتابات المتعلّقة بالأنساب، التي اتّسمت بإيراد الفضائل والمثالب المتعلّقة بالقبائل المختلفة، وتوسيع الدائرة لتشمل المدن المختلفة» (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ٥٦).

تأتي بعد ذلك مرحلة الكتابة الجغرافية الأولى وهي مرحلة (الكتابة الديوانية) التي نمثّل لها بقدامة بن جعفر (ت ٣٣٧هـ)، وهو الأديب الناقد، ما يبرز ارتباط الكتابة الجغرافية بحقل الأدب العربيّ ارتباطا وثيقا، وكتابه (الخراج وصناعة الكتابة) (****) (ابن جعفر، ١٩٨١: ١٢٨)(هو أحد أهمّ المصنّفات في هذا الحقل.

ثم تأتي (الكتابة الرّحلية)، و(أدب الرحلات)، ويعود الظهور الأول لهذا النمط عند كراتشكوفسكي إلى القرن الثالث الهجري، في صورة قصص رحلات تحمل أخبارا ومعلومات، تولى جمعها بعض الأسرى، والتجار، ومبعوثي الخلفاء إلى الأقاليم المختلفة. ثم تطورت هذه القصص مع البحَّارة والملاحين، إذ حفلت بأخبار البلدان القاصية، وامتلأت بالأساطير والعجائب، حتى شكّلت نمطا خاصا سُمِّي بنمط «قصص الرحلات البحرية»، وكان القرن الرابع الهجري عصر التطور بالنسبة لنمط «الرحلة»، حيث أخذت معالمها (من ناحية التأليف) في التبلور والنضج، وبدأت تأخذ قيمتها الأدبيّة وأسلوبها السلس ولغتها الحية المُصوِّرة (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ٢٠٢).

لتصل الكتابة الجغرافية إلى نمط (الموسوعات ومعاجم البلدان) التي ازدهرت في عصر المماليك في مصر والشام والتي أُفرِدَت فيها للجغرافيا على الدوام مكانةٌ مرموقة، هي التي تترك طابعَها المميز بوضوح على القرنين الرابع عشر والخامس عشر، وتعتبر خير ما أنتجه ذلك العصر (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ٤٠٥).

وفي إطار هذه الأنواع يرتبط تميُّز كل نص ارتباطًا وثيقًا بشخصية الرحَّال، وبطريقة تدوينه للنص: «فإذا اختفت العناصر الأدبيّة والذاتية - أو ندرت - صُنِّف النص على أنه جغرافيا وصفية، وإذا حاول الرحَّال أن يُوازن بين الموضوع والذات فإنَّ عمله يُصنَّف على أنه أدب جغرافيّ، أما إذا طغت العناصر الأدبيّة الذاتية فإنَّ عمله يُصنَّف على أنه أدب رحلة يتتبَّع خطَّ سير الرحلة» (الموافي، ١٩٩٥: ٣٥).

ويخلص كراتشكوفسكي من هذا العرض لنشأة الأدب الجغرافيّ وتطوّره إلى تمييز أنماط الكتابة الجغرافية العربيّة، إذ «يمكن بوجه عام تمييز اتجاهين أساسيين في الأدب الجغرافيّ العربيّ، فهو من ناحية يولى وجهه شطر العلوم، أعنى العلوم الدقيقة وذلك بالمعنى الذى نفهمه حاليا إذا ما أردنا تحديد علم الجغرافيا ، ومن ناحية أخرى فهو يولى وجهه شطر الأدب الفني بالغا ببعض آثاره في هذا المجال ذروة الإبداع» (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ١٨)، وهو ما يميّز الأدب الجغرافيّ العربيّ، فقد عرض للمعرفة العلمية بلغة أدبية راقية، ليس في مراحلة المتأخرة فحسب، بل في مراحل تطوّره كلّها.

ويؤكّد هذا الطرح عبد الرحمن حميدة الذي يرى «أنَّ الأدب الجغرافيّ العربيّ يتضمن تيارَيْن هامَّيْن، أحدهما هو الجغرافيا الرياضية، والآخر هو الجغرافيا الوصفية بجميع أنماطها التي ترتبط بالرحلات بمختلف أنواعها (حميدة، ١٩٩٥: ٣٦)، وهما - في الحقيقة - تياران متضافران، يجمعان علمية الجغرافيا بفنيّة الأدب، ولكنّ عبد الرحيم مودّن، يرى «أنَّ الأدب الجغرافيّ تتداخل فيه (علوم الفلك) و(أدب المسالك والممالك) فضْلاً عن (معاجم البلدان)» (مودن، ٢٠٠٦: ٥٩).

ويمكن القول إجمالا: إنّ الأدب الجغرافيّ قد «أخذ اتجاهات متعدّدة، إذ توجّه الاهتمام إلى العناية بأقطار العالم الإسلامي كما هو عند البلخي والأصطخري وابن حوقل والمقدسي، وهناك من تخصّص في قطر واحد كالهمداني في صفة جزيرة العرب، والبيروني في الهند، وظهرت في هذه المرحلة المعجمات الجغرافية، التي بدأت في ق ٥هـ كمعجم البلدان لياقوت الحموي، الذي يعدّ بحق معجما جامعا في تاريخ المدن والبلدان وجغرافيتها ، فضلا عن ظهور اتجاه آخر يتمثّل في الموسوعات الجغرافية كنهاية الأرب للنويري، وصبح الأعشى للقلقشندي، وقد دوّن العرب كل ما يتعلّق بفروع الجغرافية المختلفة الوصفية والطبيعية والسياسية والإدارية والتاريخية، والمدن والسكان» (مؤنس، ٢٠١٣:١٤١)، وقد تتبّع كراتشكوفسكي هذه الكتب والمصنّفات، واستطاع أن يحيط بمراحل تطوّر الأدب الجغرافيّ العربيّ، وأن يحدّد أنماطه العديدة، وأن يصف كلّ نمط ويحدّد أهميته في صناعة الأدب الجغرافيّ العربيّ.

### ٤- أهمية الأدب الجغرافيّ عند كراتشكوفسكي:

يعتقد كراتشوفسكي أنّ أهمية الأدب الجغرافيّ العربيّ تتجاوز حدود الشكل الضيقة التي جعلت الاهتمام به يتأخّر أمام الأشكال الأدبيّة الأخرى في التراث العربيّ، إلى المضامين الهامة التي جعلت منه ساحة للبحث البيني متعدّد الاختصاصات، فـ «ليس في وسع جميع الفنون المختلفة للأدب العربيّ الحافل أن تدّعي لنفسها مكانة واحدة من حيث القيمة، ومن حيث الأهمية العلمية، وإذا كان بعضها مثل علم اللغة والعلوم الشرعية يمثل موضوعا لدراسات المتخصصين، وهو الأمر الذي لا يمنع بالطبع من أهمية استقراءاتهم في حالات معينة بالنسبة للنواحي العريضة في تاريخ الحضارة، إلّا أن عددا من فروع الأدب العربيّ قد اكتسب أهمية تجاوزت بكثير حدود اختصاصاته الضيقة.. ولعل هذا يصدق قبل كل شيء على الأدب التاريخي والجغرافيّ العربيّ الذي اعترف العلماء به منذ عهد بعيد بأنه المصدر الأساسي والموثوق به في دراسة ماضي العالم الإسلامي، إذ تتوفر فيه مادة لا ينضب معينها لا للمؤرخ والجغرافيّ فحسب، بل أيضا لعلماء الاجتماع والاقتصاد ومؤرخي الأدب والعلم والدين وللّغويين وعلماء الطبيعة» (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ٣)، فهذه الحقول العلمية أفادت من هذا الأدب في تجاوز الصور الجغرافية للبلاد الإسلامية وما حولها من الأمم إلى المعرفة الاجتماعية والتاريخية واللغوية والطبيعية.

ومن أمثلة هذا التعدّد الموضوعاتي الذي فتح آفاق الأدب الجغرافيّ العربيّ أمام المعارف البينية قول (المقدسي البشاري ٣٣٦ هـ -٣٨٠ هـ) في علم الجغرافيا والكتابة فيه: «رأيت أن أقصد علما قد أغفلوه، وانفرد بفنّ لم يذكروه، إلا على الإخلال وهو ذكر الأقاليم الإسلاميّة وما فيها من المفاوز والبحار، والبحيرات والأنهار، ووصف أمصارها المشهورة، ومدنها المذكورة، ومنازلها المسلوكة وطرقها المستعملة وعناصر العقاقير والآلات، ومعادن الحمل والتجارات، واختلاف أهل البلدان في كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم وأوزانهم، وصروفهم، وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم، وذكر مواضع الأخطار في المغازات، وعدد المنازل في المسافات، وذكر السباخ والصلاب والرمال، والتلال والسهول والجبال، والحواوير والسماق، والسمين منها والرّقاق، ومعادن السعة والخصب، ومواضع الضيق والجدب، وذكر المشاهد والمراصد والخصائص والرسوم، والممالك والخدود والمصارد والجروم، والمخاليف والزموم، والطساسيج والتخوم، والصنائع والعلوم، والمباخس والمشاجر، والمناسك والمشاعر، وعلمت أنه باب لابدّ منه للمسافرين والتجار، ولا غنى عنده للصالحين والأخيار، إذ هو علم ترغب فيه الملوك والكبار، وتطلبه القضاة والفقهاء، وتحبّه العامّة والرؤساء، وينتفع به كلّ مسافر، ويحظى به كلّ تاجر» (المقدسي، ٢٠٠٣: ١-٢).

ويرى - كذلك - أنّ أهمية الأدب الجغرافيّ نبعت من أهمية الجغرافيا الفلكية في حياة المسلم «فتحديد بداية الصوم ونهايته ومواقيت الصلوات الخمس استدعى معرفة جيدة بالفلك والرياضيات، ولتحديد مواقيت الصلاة صنعت الساعات الشمسية الأفقية «البسيطة» التي استلزم تخطيطها معرفة دقيقة بخط عرض المكان المعين، كما أن تحديد ظل المزولة في كل يوم استلزم عملية حسابية ودراية بالأمر، واختلفت القبلة فيما يتعلق بالصلاة أو ببناء المسجد من بلد إلى آخر وارتبط تحديدها بمعرفة خط طول وعرض (Geographical Coordinates) مكة والنقطة المعينة» (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ٢٠)، فلا يمكن أن تتحدّد هذه المواقيت الإسلامية دون معرفة عميقة بعلم الجغرافيا .

ومن أهمّ أهداف هذا العلم التي كشف عنها كراتشكوفسكي إبراز الأدب الجغرافيّ العربيّ للقدرة المتميّزة للغة العربيّة على الوصف الدقيق لأشياء الطبيعة بدقة متناهية، يعينها في ذلك امتلاكها لزخم لغوي واسع يتتبّع أوصاف الشيء ومراحل نموه وأشكاله المختلفة؛ لذلك نجده «يؤكد غنى اللغة العربيّة القديمة في كل ما يتعلق بالتربة وأخص مميزاتها الباطنية، وبالعالَمَين النباتي والحيواني أيضا، وقد وصلت إلينا هذه المادة في آثار فريدة ربما كانت الوحيدة من نوعها في الأدب العالمي» (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ٤٣).

كما أنّ هذه الكتابات الجغرافية العربيّة تحوي أهدافا تاريخية غاية في الأهمية، لأنّ «الأدب الجغرافيّ العربيّ يمثّل المصدر الأساس الموثوق، ليس لدراسة ماضي العالم الإسلامي فحسب، بل يمدّنا بمعلومات من الدرجة الأولى عن جميع البلاد التي بلغها العرب، أو التي تجمّعت لديهم معلومات عنها» (الفيل، ١٩٧٩: ١٠)، فقد «ترك الجغرافيّون العرب المسلمون وصفا لجميع البلدان من إسبانيا غربا إلى تركستان ومصبّ السند شرقا، لكافة المناطق المأهولة والمزروعة والصحاري، وبيّنوا مدى انتشار النباتات المزروعة الطبيعية وتوزيع الحيوانات البحرية والنهرية والبرية والطيور، وأماكن وجود المعادن سيما المعادن الثمينة والأحجار الكريمة، وتناولوا السكان بالوصف من حيث الشكل والهيئة واللغة والدين والعادات الاجتماعية والفعاليات الاقتصادية، ولم يقتصر ذلك على حدود العالم الإسلامي، بل تجاوزتها إلى حدود العالم المعروف يومذاك» (الخفاف؛ المومني، ٢٠٠٠: ١٣).

ومـــن أهـــم فوائـــد الكتابـــة الجغرافيـــة العربيّة التـــي حدّدها كراتشكوفســـكي الربط بين الحضارة العربيّة وأوربا، فهو يعتقد اعتقـــادا جازمـــا أنّ للكتابة الجغرافية العربيّـــة فضلًا كبيرًا على الدراســـات الغربية المعاصرة، و» أنّ علمـــاء الغرب يعرفون تمام المعرفة أنّ علماء العرب والمسلمين هم الذين أرسوا الأسس الأولى لعلم الجغرافيـــة الحديثة» (الدفـــاع، دت، ٤٧)، وقد أكّد على هذا الفضل للجغرافيا العربيّة على الغرب من خلال كتاب أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الموســـوم «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» الذي يقول عنه كراتشكوفســـكي: «أكثر الكتب الجغرافية باللغة العربيّة رواجـــا وصيتا في أوروبا، إذ ليس هناك مؤلف حفظ لنـــا معطيات وافرة ذات قيمة كبرى عن بلاد الغرب كمـــا فعل الإدريسي، وقد مرّ وقت كان فيـــه الممثل الوحيد للأدب الجغرافيّ العربيّ في الدوائر العلمية الأوروبية» (كراتشكوفســـكي، ٢٠٠٨: ٢٧٩).

لذلك يخلُص عبد الرحيم مودن في نهاية الأمر إلى القول أنه «وفي كل الأحوال، كان الأدب الجغرافيّ يمزج بين الغاية العلمية من كشـــف واكتشاف لمظاهر الكون والإنسان، وبين الغاية الأدبيّة المجسَّدة في مظاهر المُتخيَّل من حكايات وأساطير ومرويَّات مختلفة» (مودن، ٢٠٠٦: ٦١)، إضافة إلى الغاية الدينية المرتبطة بالعبادات ومواقيتها الشرعية، وانتهاء بالتلاقح الثقافي بين العالم الإسلامي وأوربا.

**٥- خصائص الفنيّة للأدب الجغرافيّ العربيّ عند كراتشكوفسكي:**

اهتمّ كراتشكوفســـكي بالبحث في خصائص الكتابة الجغرافية في مختلف المصنّفات التي درســـها في كتابـــه، وعمل على التميز بين تلك الخصائص في كلّ نمط من أنماط الكتابة الجغرافية المختلفة، وكان عرْضُـــه لها في شـــكلين اثنين، يقوم أولهمـــا على العرض الإجمالي لتلـــك الخصائص مثلما فعل مع ابن جبـــير، الفقيه أبو بكر محمد بن العربيّ الإشـــبيلي (٤٦٨ هـــ ٥٤٣ هـ ١٠٧٦ ١١٤٨)، والذي يقول عنه: «أســـلوبه يمتاز بالكثير من الحيوية وســـهولة التعبير، مثال ذلك وصْفُه لجمارك الإسكندرية أو لكارثة السفينة على سواحل صقلية، أما عرضُه العام فيستهدف الصنعة والأناقة، وهو كثيرا ما يلجأ إلى الســـجع الذى يعالجـــه بالكثير من المهارة دون أن يبالـــغ فيه أو يضطر القـــارئ إلى تكلف الجهد في تفهمه، كما يشحن كتابته بالاقتباســـات الأدبيّة والإشارات اللطيفة مما يتطلب درجة معينة مـــن المعرفة والاطلاع حتى يضحى مفهوما للقـــارئ» (كراتشكوفســـكي، ٢٠٠٨: ٣٠١)، وقـــام ثانيهما على العرض التفصيلي لتلك الخصائص الأدبيّة والفنيّة، تلك التي نجده يركّز على ذكرها كلما اطّلع على أحد الكتب الجغرافية العربيّة.

وهذا الاهتمام بعرض الخصائـــص الفنيّة للأدب الجغرافيّ العربيّ يـــبرز قناعته الخاصة أنّ هذه المصنّفـــات العلمية، هي في طرحها ولغتها وأســـلوبها أدبية، لذلك وجب التأكيد على الأدوات اللغوية والفنيّة التي جعلت منها كذلك.

وانطلاقا من هذا الطرح فقـــد خصّ الجغرافيا الوصفية بالدرس لارتباطها بالجانب الأدبيّ الذي يزاوج بين الفنّ القصصي والأسلوب المشوّق، يقول: «أما التأثير الأدبيّ والفني فجاء من خلال الجغرافيا الوصفية، ولا سيما الأسلوب القصصي للرحلات المختلفة، وتدوين معلوماتهم بأســـلوب أدبي مميّز» (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ١٨)، ويمكن أن نســـتنبط من تعليقاته الكثـــيرة العديد من الخصائص التي تميّز الأدب الجغرافيّ العربيّ، وهي:

**أ- الكتابة باللغة العربيّة وأهميتها في الأدب الجغرافيّ العربيّ:**

تمتلـــك اللغة العربيّة القدرة على التعبير عـــن العلوم المختلفة بما تملكه مـــن أدوات لغوية متميّـــزة، لذلك فقد جعـــل منها علماء الجغرافيا العرب لســـان حال هذا العلم، ولتأكيد هذه الصلة أورد كراتشكوفســـكي نصًّا للبيروني، وهو من أصل فارسي، يذكر فيه أهميـــة اللغة العربيّـــة في الكتابة الجغرافية، يقول: «وإلى لســـان العـــرب نقلت العلوم من أقطار العالم فازدانت، وحلت إلى الأفئدة، وسرت محاســـن اللغة منها في الشرايين والأوردة، وإن كانت كلُّ أمة تســـتحلي لغتها التي أَلِفَتها واعتادتها واستعملتها في مآربها مـــع ألافها وأشـــكالها، وأقيس هذا بنفسي وهـــي مطبوعة على لغة لو خلّد بها علمٌ لاسْـــتغرَب اســـتغراب البعير الميزاب والزرافة في العراب، ثـــم متنقلة إلى العربيّة والفارســـية فأنا في كل واحدة دخل ولها متكلف والهجو بالعربيّة أحبّ إلىّ من المدح بالفارســـية وســـيعرف مصداق قولي من تأمل كتـــاب علمٍ قد نقل إلى الفارسي كيف ذهب رونقه وكســـف باله واســـود وجهُه وزال الانتفاع به إذ لا تصلح هـــذه اللغة إلا للأخبار الكسروية والأســـمار الليلية» (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ٢٥٢)، ويضيف كراتشكوفسكي معلّقا على هـــذا الموقف النبيل من البيروني «وهكذا فلم يمنع الشـــعور القومي الإيراني البيروني من تفضيل اللغة العربيّة على الفارسية، وهو وإن أبدى في ذلك بعض المبالغة إلا أنه بقى مخلصا لهذا الرأي طول حياته» (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ٢٥٢)، وتفضيل البيروني للكتابة باللغة العربيّة لا يعود إلى أنّها لسان الدين الإسلامي، ولغة القرآن فحســـب، بل يعـــود أيضًا إلى قدرتها المتميّـــزة على التعبير العلمي والأدبيّ، خاصـــة في هذا العلم الذي يحتاج فيه صاحبه إلى لغة تمتلك من السلاســـة والليونة والســـعة والتنوّع والقدرة ما يمكّنها مـــن الوصف الدقيق للمظاهر الجغرافية، إضافة إلى إقناع القارئ والتأثير فيه.

**ب - غلبة أسلوب الوصف في الأدب الجغرافيّ العربيّ:**

ما يلفت الانتباه في مصنّفـــات الأدب الجغرافيّ العربيّ جميعا هي تلك اللغـــة الأدبيّة التي يغلب فيها أســـلوب الوصف، فقد «اعتمد الرّحالة العرب في هذه الكتب أســـلوبا واحـــدا يقوم على الوصف، ولذا اتّسمت هذه الرّحلات بغزارة مادتها التي تتحدّث عن البلدان أو البحار وما فيها من عجائب، وشـــملت فـــوق ذلك كتبا تحمل اســـم رحلات معروفة ومحدودة مثل رحلة ابن جبير أو رحلة ابن بطوطة» (إبراهيم، ٢٠٠٠: ٧٤).

وقد «شـــمل الوصف الطرق والمســـارات التي تربـــط بين البلدان وأبعادها وعقباتها ومدى توافـــر الأمن على طولها، وموارد الماء المتاحة والاستراحات (الخانات) التي يمكن للمسافر أن ينزل فيها، والمنتجات التي تباع في كلّ منطقة أو تشترى منها، وعنى الرّحالة العرب بوصف العمران والمدن وصفا دقيقا، وســـكانها وعاداتهم،

وتقاليدهم ودياناتهم ولباسهم، وأهم مساجدها وآثارها...» (إبراهيم، ٢٠٠٠: ٧٦).

وهو ما يؤكّده النص الذي أورده كراتشكوفسكي لابن حوقل (ت. ٣٦٧ هـ/ ٩٧٧ م)، من كتاب (المسالك والممالك) في وصف البلاد الإسلامية وما جاورها من البلاد الأجنبية جاء فيه: « وقد فصّلت بلاد الإسلام إقليما إقليمًا وصقعا صقعا وكورة كورة لكل عمل، وبدأت بذكر ديار العرب فجعلتها إقليما واحدا؛ لأن الكعبة فيها ومكة أم القرى، وهى واسطة هذه الأقاليم عندي، وأتبعت ديار العرب بعد أن رسمت فيها جميع ما تشتمل عليه من الجبال والرمال والطرق وما يجاورها من الأنهار المنصبة إلى بحر فارس لأنه يحتفّ بأكثر ديارها وشكلت عطفه عليها؛ ولأن بحر فارس يعطف من جزيرة مسقط مغرّبا إلى مكة وإلى القلزم عن خمسين فرسخا من عمان، ويدعى ذلك الموضع رأس الجمجمة، ثم ذكرت المغرب ورسمته في وجهين وبدأت بشكل ما حاز منه أرض مصر إلى المهدية والقيروان وما في براريها من المدن وإن قلّت وأعقبتها بباقي صورته من القيروان والمهدية إلى أرض طنجة وازيلي ورسمت على بحره مدنه الساحلية وشكلت طرقه إلى جميع أنحائها وكيفيتها مغربه ومشرقه في سائر جهاتها... ثم صورت بلاد السند ومدنها وطرقها وسبلها وما يصاقبه من بلاد الهند والإسلام، ثم تلوتها بصورة أذربيجان وشكلت ما فيها من الجبال والطرق والأنهار العذبة كالرّسّ والكرّ إلى أن رسمت بحيرة خلاط وبحيرة كبودان وكلتاهما متصلتين بشيء من البحار وأثبت فيها جبال القبق... وصوّرت خراسان وما في ضمنها من طخارستان وجبال الباميان وطوس وقوهستان بجميع مياهها الجارية وجبالها المشهورة ورمالها وطرقها المعروفة، فهذه جميع الأرض عامرها وغامرها وهى مقسومة على الممالك ... وكان حدّ هذه المملكة في أيام العجم معلوما فلما جاء الإسلام أخذت من كل مملكة بنصيب فأخذت من مملكة الروم الشام ومصر والمغرب والأندلس وأخذت من مملكة الصين ما وراء النهر وانضمت إليها هذه الممالك العظيمة» (ابن حوقل، دت، ٥-٦)، وهو جزء من نص طويل وصف فيه ابن حوقل المسالك والممالك في العالم العروف في زمانه.

ونجد عند ابن جبير نوعا آخر من الوصف هو وصف المدائن، فقد قدّم لنا مدينة الحلة في صورة واضحة عن هذا الأسلوب، فهي «مدينة كبيرة عتيقة الوضع، مستطيلة ، لم يبق من سورها إلا حلقة من جدار ترابيٍّ مستدير بها، وهي على شط الفرات، يتصل بها من جانبها الشرقي يمتدّ بطولها، ولهذه المدينة أسواق حفيلة جامعة للمرافق المدنية والصناعات الضرورية، وهي قوية العمار، كثيرة الخلق متصلة حدائق النخيل داخلاً وخارجاً ، فديارها بين حدائق النخيل، وألفينا بها جسراً عظيماً معقوداً على مراكب كبار، متصلة من الشط، تحفّ بها من جانبها سلاسل من حديد كالأذرع» (ابن جبير، دت: ١٩٦)، وهو ما يسمح لنا بالتّعرّف على تاريخ المدن القديمة وأهلها وعمرانها.

ويورد كراتشكوفسكي نصًّا للبيروني في وصْف البحر يقول فيه: «أما البحر الذى في مغرب المعمورة وعلى ساحل طنجة والأندلس فإنه سُمِّى البحر المحيط، وسماه اليونانيون أوقيانوس، ولا يلجّج فيه إنما يسلك بالقرب من ساحله، وهو يمتد من عند هذه البلاد نحو الشمال على محاذاة أرض الصقالبة، ويخرج منه خليج عظيم في شمال الصقالبة، ويمتد إلى قرب أرض بلغار بلاد المسلمين، ويعرفونه ببحر ورنك، وهم أمة على ساحله ثم ينحرف وراءهم نحو المشرق وبين ساحله وبين أقصى أرض الترك أرضون وجبال مجهولة خربة غير مسلوكة... وأما امتداد البحر المحيط الغربي من أرض طنجة نحو الجنوب فإنه ينحرف عن جنوب أرض سودان المغرب وراء الجبال المعروفة بجبال القمر التي تنتج منها عيون نيل مصر وفى سلوكه غرر لا تنجو منه سفينة ... وأما البحر المحيط من جهة الشرق وراء أقاصي أرض الصين فإنه أيضا غير مسلوك، ويتشعب منه خليج يكون منه البحر الذى يسمى في كل موضع من الأرض التي تحاذيه، فيكون ذلك أول بحر الصين ثم الهند وخرج منه خلجانٌ عظامٌ، يسمى كلٌّ واحد منها بحرا على حدة، كبحر فارس» (البيروني، ١٩٥٤: ٨٨)، وقد كثرت أوصاف البحر في الأدب الجغرافيّ العربيّ دلالة على ركوب العلماء والرّحالين له في أقاليمه المختلفة.

وخير مثال لأسلوب الوصف في الأدب الجغرافيّ وصفُ «مملكة الإسلام»، عند المقدسي الذي يقول: «اعلم أن مملكة الإسلام - حرسها الله تعالى - ليست بمستوية، فيمكن أن توصف بتربيع أو طول أو عرض، إنما هي متشعبة يعرف ذلك مَن تَأمَّلَ مطالع الشمس ومغاربها، ودَوَّخَ البلدان وعَرَفَ المسالك ومَسَحَ الأقاليم بالفراسخ، وسنجتهد في تقريب الوصف وتصويره لذوي العقول والأفهام إن شاء الله تعالى، الشمس تغرب في حافة بلد المغرب ويرونها تغيب في بحر الروم، ويمد إقليم الشام من تخوم مصر نحو الشمال إلى بلد الروم، فيقع بين بحر الروم وبادية العرب. ويتصل البادية وبعض الشام بجزيرة العرب، ويدور على الجزيرة بحر الصين إلى عبادان من أرض مصر. ويتصل أرض العراق بالبادية وبعض الجزيرة. ويتصل بتخوم العراق الشمالية إقليم أقور فيمتد إلى بلد الروم وقد تَقوَّسَ عليه الفرات من نحو الغرب، ووقع خلف الفرات بقية البادية وطرف من الشام، فهذه أقاليم العرب». (المقدسي، ٢٠٠٣: ٨٣-٨٤).

فهذا الوصف الجغرافيّ الدقيق للمسالك والممالك عند ابن حوقل، وللمدن عند ابن جبير، ووصْف البحر للبيروني، ومملكة الإسلام للمقدسيّ يبرز أهمية هذه الخاصية في الأدب الجغرافيّ العربيّ، فلا يمكن الاستغناء عن التفاصيل الدقيقة في تحديد جغرافية الأماكن أو المظاهر الأُخر، كوصف النجوم والأفلاك، أو تحديد الأوقات والأزمنة، وهي سمةٌ مهمةٌ في هذا الأدب جعلت من هذه المصنّفات مراجع عن تاريخ الأمم وجغرافيتها طيلة تسعة قرون أو تزيد.

### ج- الصَّنعة اللَّفظية وغلبة السجع:

اهتّم العرب بالتكلّف في النثر كما في الشِّعر، فغلب السجع والازدواج في الجمل إلى درجة أن قال أبو هلال العسكري: «لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجا، ولا تكاد تجد لبليغ كلاما يخلو من الازدواج، ولو استغنى كلام عن الازدواج لكان القرآن»

(العسكري، ١٩٨١: ٢٦٠)، وهي الخاصية البديعية التي غلبت على الأدب الجغرافيّ العربيّ، وقد انتبه إليها كراتشكوفسكي، وقد عبّر عنها حينما أورد نصا للمقدسي قدّم فيه لكتابه (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم)، قال عنه: «وهذه الحكاية مكتوبةٌ في لغة مسجوعة، تحفل بالكثير من التعابير النادرة والإشارات المقتضبة؛ لذا فإنها تمثل أنموذجا طريفا لأسلوب المقدسي، ويبرز فيها ميله الواضح إلى السجع والنثر المقفى» (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ٢١٢).

ومن الأمثلة التي أوردها كراتشكوفسكي عن أسلوب المقدسي المسجوع، نصّ يعرض لأسفاره جاء فيه «فقد تفقهت وتأدبت، وتزهدت وتعبدت، وفقّهت وأدّبت، وخطبت على المنابر، وأذنت على المنائر، وأممت في المساجد وذكّرت في الجوامع، واختلفت إلى المدارس، ودعوت في المحافل، وتكلمت في المجالس، وأكلت مع الصوفية الهرائس، ومع الخانقائيين الثرائد، ومع النواتي العصائد. وطُردت في الليالي من المساجد، وسحت في البراري، وتهت في الصحاري، وصدقت في الورع زمانا، وأكلت الحرام عيانا، وصحبت عباد جبل لبنان، وخالطت حينا السلطان، وأشرفت مرارا على الغرق، وقطع على قوافلنا الطرق، وخدمت القضاة والكبراء، وخاطبت السلاطين والوزراء، وصاحبت في الطرق الفساق، وبعت البضائع في الأسواق. وسجنت في الحبوس، وأخذت على أني جاسوس، وعانيت حرب الروم في الشواني وضرب النواقيس في الليالي. وحججت وجاورت، وغزوت ورابطت، وكسيت خلع الملوك وأمروا لي بالصلات. وعريت وافتقرت مرات، ووبخني الأشراف، وعرضت عليَّ الأوقاف، وخضعت للأخلاف. ورميت بالبدع، واتهمت بالطمع. وأقامني الأمراء والقضاة أمينا، ودخلت في الوصايا وجعلت وكيلا. واتبعني الأرذلون، وعاندني الحاسدون، وسعي بي إلى السلاطين. ودخلت حمامات طبرية، والقلاع الفارسية. ورأيت يوم الفوارة، وعيد بربارة، وبئر بضاعة، وقصر يعقوب وضياعه، ومثل هذا كثير ذكرنا هذا القدر ليعلم الناظر في كتابنا أنّا لم نصنفه جزافا، ولا رتّبناه مجازا، ويميزه من غيره» (المقدسي، ٢٠٠٣: ٦٨-٦٩-٧٠).

ويعلّق كراتشكوفسكي على مثل هذه النصوص قائلا: «والصّنعة اللفظية باديةٌ على هذا النص، وعلى شاكلته كثير من النصوص التي حفظها مؤرِّخو الأدب، ومهما يكن من أمر فإنه من المستحيل إنكار نمط يكاد يكون أطرف محاولة لصياغة التصوُّرات الجغرافية في قالب أدبي (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ٦٩)، وهو من الأساليب التي تعوّد عليها الكتّاب والقرّاء على حدّ السواء في ذلك الوقت؛ ولذلك شاع السجع في الكتابات الجغرافية من بدايات القرن الثالث إلى القرن الحادي عشر.

### د - الأسلوب البسيط والمباشر في الأدب الجغرافيّ العربيّ:

لجأ كتّاب الأدب الجغرافيّ العربيّ، في بعض كتبهم، إلى الأسلوب الواضح والبسيط والمباشر، دون حاجة إلى التكلّف والتسجيع المبالغ فيه، فكانت النصوص التي نتجت عن هذا الأسلوب أقرب إلى القارئ العادي الذي لا تهمّه من مثل هذه المصنّفات إلاّ المعرفة الجغرافية المفيدة، وخير مثال لهذا الأسلوب نص القزويني (٦٠٠هـ-١٢٠٣/٦٦٢هـ ١٢٨٣) في علم الفلك، يقول فيه: «والأفلاك كراتٌ محيطةٌ بعضها ببعض حتى حصلت من جملتها كرة واحدة يقال لها: العالم، وأدناها إلى العناصر فلك القمر، ثم فلك عطارد، ثم فلك الزهرة، ثم فلك الشمس، ثم فلك المريخ، ثم فلك المشترى، ثم فلك زحل، ثم فلك الثوابت، ثم فلك الأفلاك، واعلم أن لكل فلك مكانا لا ينتقل عنه، لكنه متحرك فيه بأجرامه لا يقف طرفة عين، وسرعة حركاتها أسرع من كل شيء شاهده الإنسان حتى صح في الهندسة أن الفرس في حالة الركض الشديد من الوقت الذي رفع يديه إلى أن يضعها يتحرك الفلك الأعظم بثلاثة آلاف فرسخ، ثم إن من الأفلاك ما يتحرك من المشرق إلى المغرب، كالفلك الأعظم، ومنها ما يتحرك من المغرب إلى المشرق، كفلك الثوابت وأفلاك السيارات، ومنها ما يتحرك بالنسبة إلينا دولابية، ومنها ما يتحرك حمائلية، ومنها ما يتحرك رحوية، ومنها ما يشمل على الوسط ولكن ليس مركزه مركز العالم كالأفلاك التسعة، ومنها ما يشتمل على الوسط لكن ليس مركزه مركز العالم كخارج المراكز، ومنها ما ليس مشتملا على الوسط كأفلاك التداوير» (القزويني، ٢٠٠٠: ١٩).

ويعلّق كراتشكوفسكي على هذا النص مبرزا أسلوبه الواضح، «والقزويني ككاتب يتميز بالوضوح في الأسلوب الذي يبلغ به في واقع الأمر درجة رفيعة، وهو بلا ريب نابغة كمبسط للمعارف يعرض مادته العلمية في كثير من المهارة بحيث لا تنفر القارئ العام، ولديه مقدرةٌ فائقةٌ في تبسيط أكثر الظواهر تعقيدا، وذلك بطريقة جذّابة واضحة، كما أن أسلوبه يجمع بوجه عام بين البساطة والتنوع» (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ٣٦١)، وهو التبسيط الذي لا ينزل باللغة إلى العامية الفجّة، بل يحافظ على فصاحتها وسلامة بنائها من غير مبالغة.

### هـ - الأسلوب القصصي في الأدب الجغرافيّ العربيّ:

وجود الأسلوب القصصي في الأدب الجغرافيّ العربيّ أمر طبيعي خاصة لهؤلاء الرّحالة الذين جابوا الآفاق، فرأوا عوالم جديدة تختلف كلّ الاختلاف عن تلك التي نشأوا فيها، كما وصلوا إلى أراضٍ تختلف عن تلك التي نبتوا فيها، وخلال تصويرهم لهذه العالَم الجديدة احتاجوا إلى أسلوبي الحكي والسرد للتعبير عن مختلف الأحداث التي واجهتهم في أسفارهم، فتخلّلت كتاباتهم كثيرٌ من القصص المشوّقة، لذلك نجد أنّ «بعض الرّحالين جنحوا إلى سرد القصص التي عاشوها أو سمعوا بها، وكان سردهم لهذه القصص بعفوية وحيوية، قربت الرحلة من عالم القصة» (الشوابكة، ٢٠٠٨: ٣٠٦).

وترى الباحثة عواطف بنت محمد يوسف نواب أنّ «الرحلة عادة تحفل بالمقومات الأُسس للقصة من فكرة رئيسية، وبناء، وحبكة، وبيئة زمانية ومكانية، وشخصيات، وبطل للقصة، علاوة على اللغة والأسلوب. فالفكرة موجودة، ومجريات الرحلة هي بناؤها وحبكتها، والبيئة الزمانية والمكانية المحددة، والشخصيات أدت دورها واقعيا، وبطلها الرحالة نفسه، ونأتي إلى اللغة والأسلوب الذي كان يصل في بعض الأحيان إلى درجة الإبداع المستند إلى الواقع، وكثير من الخيال في الموضوعات التي يطلق فيها الرحالة العنان لخياله» (نواب، ٢٠٠٨: ٢٠).

ومـــن القصص التي أوردها كراتشكوفســـكي والتي يعتقد أنّها تحمل معلومـــات جغرافية قيّمة تخرجها من طابعها الخيالي إلى الحقيقة، قصص الســـندباد البحري من كتاب ألف ليلة وليلة، إذ «يزيـــد في الاهتمام بالأدب الجغرافيّ أحيانـــا طابعه الفني الحي، ويكفي أن نتذكر في هذا الصدد مصنفات من طراز أسفار السندباد، تلـــك القصص الجغرافية الفريدة في نوعها» (كراتشكوفســـكي، ٢٠٠٨: ١٨).

إنّ هـــذه القصة «تجاوزت تلك الحدود فجذبت في فلكها أواســـط أفريقيا وشـــمال شرقي أوروبا وجنوب شرق آســـيا، وهي التي ابتدعت تلك الشـــخصية الخالدة شـــخصية السندباد البحري الذي ترتبط أســـفاره بالأدب الجغرافيّ ارتباطا أوثق ممَّا كان يظن من قبل» (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ١٩).

**و- الإيجاز والكثافة اللغوية:**

الإيجاز في اللغة العربيّة « أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوســـاط» (القزويني، ١٩٩٨: ١٧٠)، أي بأقلّ ممَّا تعوّد الإنســـان العادي إيصاله بها، ولكن هذا لا يعني أن يؤثّر ذلك على أداء المعنى كاملا، فشرط الإيجاز هو «تقليل الكلام من غير إخلال بالمعنى، إذا كان المعنى يمكن أن يعبّر عنه بألفاظ كثيرة ويمكن أن يعبّر عنه بألفاظ قليلة، فالألفاظ القليلة إيجاز» (الرماني، ١٩٧٦: ٧٦)، وهـــو ما يؤدي إلى التكثيف اللغوي الذي يخفي خلف العبارة الموجزة الكثير من الدلالات العميقة.

وقد لاحظ كراتشكوفسكي أنّ بعض أنماط الأدب الجغرافيّ العربيّ قد قامت على خاصية الإيجـــاز والتكثيف اللغوي، كنمطي الأنواء والفضائل، ومن هذا النوع الأخير يورد هذا الباحث حوار الحجّاج بن يوسف مع إحدى الشخصيات التي اكتنفتها الأسطورة في ذلك العهد، وهو أيوب بن زيد، وقبل أن يأمر الحجاج بقتله بالقســـوة المعهودة فيه، ســـأله: «فما تبقى من نعتك قال ابن القرّية ذهني حديد وجوابي عتيد قال كيف علمك بالأرض قال ليســـألني الأمير عما أحـــبّ قال أخبرني عن الهند قال بحرهـــا درّ وجبلها ياقوت وشجرها عطرٌ، قال أخبرني عن مكران قال ماؤها وشَلٌ، وتمرها دقَلٌ، وســـهلها جبـــل، ولصها أبطل، إن كثـــر الجيش بها جاعوا، وإن قلّـــوا ضاعوا قال: فخراســـان، قال ماؤهـــا جامد وعدوّها جاهد، بأســـهم شـــديد وشرهم عتيد وخيرهم بعيد، قال فاليمن قـــال أرض العرب ومعدن الذهب قال: فعمان، قال حرها شـــديد وصيدها موجـــود وأهلها عبيد، قال فالبحران، قال كناســـةٌ بين مصرين وجنة بين بحرين، قال فمكة، قال: قوم ذوو جفاء، ومن ســـجيتهم الوفاء، قال فالمدينة، قـــال: ذوو لطف وبرّ وخير وشر، قـــال فالبصرة، قال: حرُّها فادح وماؤها مالح وفيضها ســـائح، قال فالكوفة، قال: جنة بين حماة وكنّة العراق تحشد لها والشام يدرّ عليها سفلت عن برد الشـــام، وارتفعت عن حرّ الحجاز، قال فالشـــام، قال: تلك عروسٌ بين نسوة جلوس تُجْلَبُ إليها الأموال، وفيها الضراغمة الأبطال» (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ٣٢٥-٣٢٦)، فكل عبارة من هذه العبارات القصيرة تقدّم للمهتمين بالجغرافيا العربيّة كثيرًا من الصور عن أرجاء العالم الإســـلامي والحضارات المجاورة، من وصف للمدن والقرى، إلى وصف لأحوال الناس فيها، إضافة إلى جملة من الصـــور الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

**ز- اللغة العجائبية والأسلوب الأسطوري:**

العجيب والأســـطوري في الأدب هو «جنس تخييلي يســـنده وعي ولغـــةٌ متميّزة وتيمات تكتشـــف المجهول وتوسّـــع مـــن دائرة الأدب» (تودوروف، ١٩٩٣: ٤)، ويرى كراتشكوفســـكي أن النمط الذي ازدهر بشـــكل حقيقي وانتعش هو ما يســـمى بالجغرافيا الأســـطورية، كالكلام عن حجم الأرض وعن البحر المحيط ومنبع الأنهار من الفردوس وأعماق البحار والبحيرات وسلاسل الجبال. نهايةً يُلَخِّص الفصل في مثل هـــذه المادة بما فيها من اللامعقول، ويتوصـــل إلى أنهـــا قد أثـــرت أيضًا عـــلى المصنفـــات الجغرافية المتخصصة التي تلتها فلم تســـتطع أن تخلص نفسها من ربقتها (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ٤٢٧)، وهو ما يفتح المجال للاعتقاد أنّ هـــذا الأدب الجغرافيّ العجائبي لا ينفصـــل عن الحقيقة إلاّ بمقدار ضئيل، سببه تلك القصص والأحداث والصور الغريبة التي أضافها الكاتب لجذب القارئ والتأثير فيه.

ومن القصـــص الغريبة التي مُزِجَت بالمعرفـــة الجغرافية، والتي لفتت انتباه كراتشكوفسكي (قصة عجيبة) لابن بطوطة (١٣٠٤ - ١٣٧٧م بطنجة) (٧٠٣ - ٧٧٩هـ) والتي كتبها عن إحدى مناطق الهند، وفيها يقول: «ولما كنت بصين كلان ســـمعت أنَّ بها شيخا كبيرا قد أناف على مائتي سنة، وأنه لا يأكل ولا يشرب، ولا يحدث، ولا يباشر النســـاء مع قوته التامة، وأنه ساكن في غار بخارجها يتعبد فيه، فتوجهت إلى الغار، فرأيته على بابه وهو نحيف شـــديد الحمرة، عليه أثر العبادة ولا لحية له فســـلّمت عليه فأمسك بيدي وشمّها، وقال للترجمان: هذا من طرف الدنيا كما نحن من طرفها الآخر!! ثم قـــال لي: لقد رأيت عجبا، أتذكر يـــوم قدومك الجزيرة التي فيها الكنيسة والرجل الذي كان جالسا بين الأصنام وأعطاك عشرة دنانير من الذهـــب؟ فقلت: نعم! فقال: أنا هو! فقبّلت يده، وفكّر ساعة، ثم دخل الغار فلم يخرج إلينا، وكأنه ظهر منه النّدم عـــلى ما تكلّم به، فتعجبنا ودخلنـــا الغار عليه فلم نجده، ووجدنا بعض أصحابـــه ومعه جملة بوالشـــت من الكاغـــد، فقال: هذه ضيافتكـــم، فانصرفوا. فقلنا له: ننتظر الرجـــل، فقال: لو أقمتم عشر ســـنين لم تروه، فإن عادته إذا اطلع أحد على سرّ من أسراره لا يراه بعده، ولا تحسب أنه غاب عنك بل هو حاضر معك، فعجبت من ذلك وانصرفت، فأعلمت القاضي وشيخ الإسلام وأوحد الدين الســـنجاري بقضيته، فقالوا: كذلك عادته مـــع من يأتي إليه من الغرباء ولا يعلم أحدٌ من ينتحله من الأديان! والذي ظننتموه أحد أصحابـــه هو هو. وأخبروني أنه كان قد غاب عن هذه البلاد نحو خمسين سنة ثم قدم عليها منذ ســـنة، وكان السلاطين والأمراء والكبراء يأتونـــه زائرين فيعطيهم التّحف عـــلى أقدارهم، ويأتيه الفقـــراء كلّ يوم فيعطي كلَّ أحد عـــلى قدره، وليس في الغار الذي هو به ما يقع عليه البصر! وأنه يُحدِّث عن السنين الماضية، ويذكر النبي صلى الله عليه وسلم، ويقول: لو كنت معه لنصرته، ويذكر

الخليفتين عمر بن الخطاب وعليًّا بن أبي طالب بأحسن الذكر، ويثني عليهما، ويلعن يزيد ابن معاوية ويقع في معاوية» (ابن بطوطة، ١٩٩٧، ١٣٩-١٤٠).

ويعلّق كراتشكوفسكي على مثل هذه القصص العجائبية والأسلوب الأسطوري بقوله: «إنه لمن العسير القول بأن جميع حكايات ابن بطوطة عن الصين هي من نسج الخيال وحده، حقا إنّ وصفه المفصل لتلك البلاد يشمل عددا من النقاط الغامضة ولكنه لا يخلو أحيانا من فقرات معينة تعتمد على ملاحظة مباشرة عن الصين، فضلا عن أنه من المستحيل القول بأن رواياته التي وجدت توكيدا في المصادر الصينية وفي أسفار ماركوبولو قد كانت من تلفيق مخيلته» (كراتشكوفسكي، ٢٠٠٨: ٤٢٩)، بل يمكن لنا أن نعتقد أن ابن بطوطة وغيره كانوا يقصدون إلى هذا المزج بين الحقيقي والعجائبي قصدا؛ لأنّ القارئ العربيّ لم يتعوّد بعد على تلقّي النصوص العلمية الجافة، وهو الذي تعوّد على اللغة الأدبيّة قرونا طويلة.

ح- العجمة وتصحيح الأسماء:

اهتمّ كراتشكوفسكي بالمعاجم الجغرافية اهتماما بالغا، فقد تتبّع نشأتها وتطوّرها بداية برسالة «كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى» لعرام بن الإصبع، وهي رسالة غلب عليها الطابع اللغوي أكثر من الطابع الجغرافيّ، ولكنها مهدت الطريق شيئا فشيئا إلى ظهور الأدب الجغرافيّ» (السلمي، ١٩٩٠: ٤٤)، بسبب ما تحمله من مادة غنية عن أسماء الأماكن، وأشكال الأرض وأنواع التربة، وأسماء الجبال والمدن والقرى، وأسماء النجوم والكواكب، ومنازل القمر وغيرها.

وقد درسها كراتشكوفسكي وأفاد منها في تصحيح تلك الأسماء بنية ولفظًا، واستنتج دورها الاصطلاحي في بناء علم الجغرافيا، الذي أمدّته بمادة لغوية غنية، ومن أهم المعاجم التي درسها (معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع) لأبي عبيد الله البكري الأندلسي (١٠٣٠م - ١٠٩٤م)، والذي يبيّن في مقدمته التي نقلها كراتشكوفسكي الهدف من وضعه، فـ «هذا كتاب معجم ما استعجم ذكرت فيه - إن شاء الله - جملة ما ورد في الحديث والأخبار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار منسوبة محددة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة، فإني لما رأيت ذلك قد استعجم على الناس أردت أن أفصح عنه بأن أذكر كلَّ موضعٍ حتى لا يدرك فيه لبس ولا تحريف، وقد قال أبو مالك الحضرميّ ربّ علم لم تُعجَم فصوله فاستعجم محصوله، فإنّ صحة هذا لا تدرك بالفطنة والذكاء كما يلحق المشتق من سائر الأسماء، وما أكثر المؤتلف والمختلف في أسماء هذه المواضع مثل ناعجة وباعجة ونبتل وثيتل ونخلة ونحلة وسماية وشاية والنقرة والنّقرة وجند وجند وجسان وحسّان وحبجب وحبحب وسنام وسنام وشبام وسلع وسلع والحَوَب والحوْءَب وقِرن وقَرن وجفاف وحفاف وحتّ وختّ وتهامة ونهامة بالنون وخزاز وجرار وحراز، وكذلك ما اشتبه أكثر حروفه نحو سمن بالنون وسمي بالياء وشمام بالميم وسقام بالقاف وشابة بالباء وشامة بالميم ونملى بالنون وقملي بالقاف وخملي بالخاء وجرزان بالزاي وجرذان بالذال وإلاهة وإهالة بتقديم الهاء على اللام والقاعة والقاحة، وقديما صحف الناس في مثل هذا» (البكري، ١٤٠٣هـ ٤)، فقد وعى كتّاب المعاجم الجغرافية العربيّة دورها في الحفاظ على أسماء الأماكن والمواضع والمدن من التغيير، والنطق الصحيح للأعجمية والغريبة منها، وتتبّع التغييرات التي طالت بعضها.

وقد أورد كراتشكوفسكي مثالا عن هذه الوظيفة الهامة للمعاجم الجغرافية، في حوار لغوي بديع بين ابن قتيبة والأصمعي، قال ابن قتيبة قرئ على الأصمعي في شعر أبي ذؤيب:

بأسفل ذات الدّير أفرد جحشها *** فقد ولهت يومين فهي خلوج

فقال أعرابي حضر المجلس للقارئ ضل ضلالك إنما هي ذات الدبر بالباء المعجمة بواحدة وهي ثنيةٌ عندنا، فأخذ الأصمعيُّ بذلك فيما بعد، وقال أبو حاتم قرأت على الأصمعي في شعر الراعي:

وأَفْرَعْنَ في وادي الأمير بَعْدَما *** كَسَا البيدَ ساقي القَيْظة المتناصرُ

فقال الأعرابي لا أعرف وادي الأمير، قال: فقلت: إنها في كتاب أبي عبيدة «في وادي دلاميد»، فقال ولا أعرف هذا، ولعلها جلاميد، ففصلت الجيم من اللام. قال أبو حاتم وفي رواية ابن جبلة «وادي الأميل» باللام، وكلها غير معروفة (البكري، ١٤٠٣هـ ٤)، وهو ما دفع بالبكري إلى تتبّع تلك الألفاظ الجغرافية والعمل على تصحيها بناءً ودلالة، مع تحديد مواضع وجودها، وهي خاصية متميّزة لم نرَ مثلها في الكتابات الجغرافية للأمم الأُخَر.

الخاتمة

كشف كتاب (الأدب الجغرافيّ العربيّ لإغناطيوس كراتشكوفسكي) عن أحد أشكال الكتابة الفنية المغمورة في التراث العربيّ، رغم أهميتها في إغناء النثر العربيّ القديم الذي اعتبر قاصرا أمام سطوة الشعر وسيطرته على الساحة الثقافية العربيّة.

والملاحظ أنّ هذا الباحث لم يتحرّج منذ عتبة العنوان أن يصطلح على هذا الشكل الفني بـ (الأدب الجغرافيّ) جامعا بين حقلين مختلفين، الأدبيّ وما يمتاز به من ذاتية في الطرح، والجغرافيّ وما تميّزه من الموضوعية؛ ليفتح أمام القارئ العربيّ وغير العربيّ نافذةً إلى القراءة المغايرة للتراث الأدبيّ، من خلال هذا المزج الذي يثير دهشة التلقي، ويدفع القرّاء إلى فك طلاسم هذه العلاقة بين المتناقضيْن.

وقد نجح كراتشكوفسكي في تحديد المفهوم الدقيق لهذا الشكل الأدبيّ، وفي تحديد أنماطه العديدة من خلال عملية الاستقراء الموضوعي لعدد كبير من المصنّفات الأدبيّة العربيّة القديمة التي تجاوز زمن تأليفها التسعة قرون، كاشفا عن أسبقية العرب في تطوير هذا النوع من الكتابة الأدبيّة/ العلمية.

لكنَّ أهم ما ميّز هذا الكتاب هو احتواؤه، ظاهريًّا في بعض الأحيان، وضمنيًّا في كثير منها، على جملة من الخصائص التي تميّز بها الأدب الجغرافيّ العربيّ، ولعلّ أهمّها ما كشف عنه كراتشكوفسكي من قدرة اللغة العربيّة الخاصة على التعبير الجغرافيّ عن الأمم والمسالك والمدن ومظاهر الطبيعة، وأحوال البشر فيها، وهي -

دون شـــك - نابعةٌ مـــن تنوّع الألفاظ وتعـــدّد المعاني التي تصف الأشـــياء في أحوالها المختلفة، وهو ما يبرز قدرة اللغة العربيّة على وصْف الظواهر الجغرافية بدقةٍ لا تضاهيها فيها لغة أخرى.

يُضاف إلى ذلك تنوّع أســـاليب الطرح الفنّـــي للقضايا الجغرافية، والتـــي تنوّعت بين الأســـلوب الفنّـــي الغني بالصـــور الجمالية، والأســـلوب البسيط والمباشر، وأســـلوب الإيجاز الذي يعتمد على الكثافة اللغوية، في تداخلها مع الأســـاليب القصصية التي تعتمد تقنيات السرد والحوار، وأســـلوب الحَكْـــي العجائبي الذي يقدّم المعلومة الجغرافية في ثنايا القصص الغريبة.

وما يميّز الأدب الجغرافيّ العربيّ أكثر في نظر كراتشكوفسكي هو صدقه في نقْل الظواهر الجغرافية، فحتى قصص السندباد البحري حوت في مضمونها معلومات جغرافية حقيقية عن الأمم والأماكن والمسالك البريّة والبحرية الرابطة بينها.

**الهوامش:**

(*) إغناطيـــوس كراتشكوفســـكي (**Крачковский, Игнатий Юлианович**) مســـتشرق روسي، من مؤســـسي مدرســـة الاستشراق الروسي. ولد في ٤ مارس ١٨٨٣ بفيلنيوس وتوفي في ٢٤ يناير ١٩٥١ بلينينغراد، التحق عام ١٩٠١ بكلية اللغات الشرقية في جامعة ســـان بطرسبيرغ، فدرس اللغتين العبرية والحبشـــية، درس تاريخ الشرق الإســـلامي عـــلى يد المؤرخ الروسي بارتولد، تـــدرب على لغة المخاطبـــة العربيّة بلهجة شـــامية، زار مصر وسوريا وفلســـطين، فأطّلع على خزائن كتبهـــا وتعـــرف إلى علمائها وأدبائهـــا، وكان أول من ترجم معاني القرآن الكريم الى الروســـية، ترك كراتشكوفســـكي حـــوالي ٤٥٠ بحثا ومقالة نشرت في مؤلفاته الكاملة. ودرس أشـــعار أبي العتاهية والمعري والمتنبـــي والبحتري، وصنف أعمالهم في الغزل والهجاء والحماســـة، كمـــا درس الرواية التاريخية العربيّة ونـــشرت تحت إشرافه الطبعة الأكاديمية لـ»حكايات ألف ليلة وليلة»، ونشر دراساته في تحقيق العديد من المخطوطات العربيّة المحفوظة في خزائن أكاديمية العلوم الروسية.

(**) كلوديـــوس بطليموس: عالـــم الفلك الأشـــهر في العصور القديمة، ولد في بلدة المنشاة بصعيد مصر من أصل يوناني، وعاش في القرن الميلادي الثانـــي ما بين عام ٩٠ و١٧٨م في مدينة الإسكندرية على أغلب الأقوال، وبها تعلم، ثم مارسَ عملـــه في الفلـــك، وكان إضافة إلى ذلك عالمًـــا في الرياضيات والجغرافيا والتاريخ، وكان يكتب الشـــعر باللغة اليونانية، ألّف بطليموس العديد من المؤلفات، وهي: كتاب المجسطيّ، وهي كلمة تعني كلمة المجيد، إضافة إلى كتب: فلك التدوير، كتاب نظام أرضي المركز، نظام بطليموس، تراث فلكيّ.

(***) معنـــى النّوء ســـقوط النجم منها في المغـــرب وطلوع آخر يقابله من ساعته في المشرق. وسقوط كل نجم منها في ثلاثة عـــشر يوما، خلا الجبهة، فان لها أربعة عشر يوما. فيكون انقضاء ســـقوط الثمانية والعشرين مع انقضاء السنة. ثم يرجع الأمر إلى النجم الأول في ابتداء الســـنة المقبلة، وكانت العرب تقول: لا بدّ لكل كوكب من مطر، أو ريح، أو برد، أو حرّ، فينسبون ذلك إلى النجم. وإذا مضت مدة النوء، ولم يكن فيها مطر، قيل: خوى نجم كذا، وأَخْوى.

(****) في كتاب (الخراج وصناعة الكتابة) يلفت انتباهنا موضوع (غـــزوات الصيف والشـــتاء) التي يقول عنهـــا قدامة بن جعفر: «إنّ أجهدها، ممَّا يعرفه أهل الخبرة من الثغريّين، أن تقع الغزاة التي تســـمّى الربيعية لعشرة أيام تخلو من أيار بعد أن يكون الناس قد أربعوا دوابّهم وحسنت أحوال خيولهم، فيقيمون ثلاثين يوما هي بقيّة أيار وعشرة من حزيران، فإنهم يجـــدون الكلأ في بلاد الروم ممكنا، وكأنّ دوابّهم ترتبع ربيعا ثانيا. ثم يقفلون فيقيمون إلى خمسة وعشريـــن يوما، وهي بقية حزيران وخمســـة من تمّوز، حتّى يقوى ويسمن الظهر ويجتمع الناس لغزو الصائفة ثـــم يغزون لعشرٍ تخلـــو من تمّوز، وأما الشّـــواتي فإني رأيتهم جميعا يقولـــون: إنّ كان لا بدّ منها فليكن مما لا يبعد فيه ولا يوغل، وليكن مسيرة عشرين ليلة بمقدار ما يحمل الرجل لفرسه ما يكفيه على ظهره، وأن يكون ذلك في آخر شباط، فيقيم الغزاة إلى أيام تمضي من آذار، فإنهم يجدون العدوّ في ذلك الوقت أضعف ما يكون نفسا ودوّاب ويجدون مواشيهم كثيرة. ثم يرجعون ويربّعون دوابّهم.

**المراجع**


إبراهيم، عيسى على (٢٠٠٠). الفكر الجغرافيّ والكشوف الجغرافية، مصر، دار المعرفة الجامعية.

ابـــن بطوطة، شـــمس الدين أبي عبد الله محمد بـــن عبد الله بن محمد اللواتي الطنجي (١٩٩٧). رحلة ابن بطوطة (تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأســـفار)، المجلد الرابع، حققه: عبد الهادي التازي، المغرب، منشورات أكاديمية المملكة المغربية.

ابـــن جبير، أبو الحســـن محمد (د.ت). رحلة ابـــن جبير، بيروت، منشورات دار التراث العربيّ.

ابن جعفر، قدامـــة (١٩٨١). الخراج وصناعـــة الكتابة، تحقيق: محمد حســـين الزبيدي، منشورات وزارة الثقافة والاعلام، بغداد، العراق، سلسلة كتب التراث، دار الرشيد للنشر.

ابن حوقل، أبو القاســـم (١٨٧٢). كتاب المســـالك والممالك، ليدن، ألمانيا مطابع بريل.

أبو الحســـن علي بن عيسى بن علي بن عبد الله الرماني (١٩٧٦). النكـــت في إعجاز القرآن، ط٣، تح: محمد خلف الله، محمد زغلول سلام، مصر، دار معارف.

البكري، أبو عبيـــد عبد الله بن عبد العزيـــز الأندلسي (١٤٠٣ه). معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ط٣، تح: مصطفى السقا، ج١، بيروت، عالم الكتب.

البيرونـــي، أبو الريحان محمد بن أحمـــد (١٩٥٤). كتاب القانون المسعودي (ت٤٤٠ه)، ط١، حيدر أباد، الهند، مطبعة مجلس دائرة

المعارف العثمانية.

تـــودوروف، تزفتـــان (١٩٩٣). مدخـــل إلى الأدب العجائبي، ط١، ترجمة: الصديق بوعلام، المغرب، دار الكلام.

جورج، بيار (٢٠٠٢). معجم المصطلحات الجغرافية، ط٢، ترجمة: محمد الطفيلي، مراجعة: هيثم اللمع، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

حميدة، عبد الرحمن (١٩٩٥). أعلام الجغرافيّين العرب ومقتطفات من آثارهم، ط٢، دمشق، دار الفكر.

خزعل، ياســـين مصطفـــى (٢٠١٧). المدخـــل إلى الأدب الجغرافيّ العربيّ الإسلامي دراسة تطور علم الجغرافية في أدبيات الحضارة الاسلامية في إضافة تجاربهم العملية، دار نور للنشر.

خصباك، شـــاكر (١٩٨٦). الجغرافية عنـــد العرب، بيروت، لبنان، المؤسسة العربيّة للدراسات والنشر.

الخفاف، عبد علي؛ المومني، محمد أحمد عقلة (٢٠٠٠). دراســـات في الـــتراث الجغرافيّ العربيّ الإســـلامي، الأردن، دار الكندي للنشر والتوزيع.

خـــير، صفـــوت (٢٠٠٠). الجغرافيـــة، موضوعهـــا، ومناهجها وأهدافها، دمشق - بيروت، دار الفكر.

الدفاع، علي بن عبد اللـــه (دت)، روّاد علم الجغرافية في الحضارة العربيّة الإسلامية، الرياض، السعودية، مكتبة التوبة.

الدينوري، أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة (ت٢٧٦) (١٩٢٤). كتاب الأنواء في مواسم العرب، مصر، دار الكتب.

الذاكـــري، محمد فـــؤاد (١٤٢٤هـ). المنهج العلمـــي التطبيقي لـــدى الجغرافيّين العرب، مجلة الفيصل، العدد ٣٢٦، شـــعبان، السعودية.

السلمي، عرام بن أبي الإصبع (١٩٩٠). كتاب أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية.

الشـــوابكة، نوال عبـــد الرحمن (٢٠٠٨). أدب الرحلة الأندلســـية والمغربية حتى نهاية القرن التاسع الهجري، ط ١، عمان، الأردن، دار المأمون للنشر والتوزيع،

عبد الفتاح، فاطمة (٢٠٠٠). إضاءات على الاســـتشراق الروسي، دمشق، منشورات اتحاد الكُتّاب العرب.

العســـكري، أبو هـــلال (١٩٨١). الصناعتين، تـــح: مفيد قمحية، بيروت، دار الكتب العلمية.

الفيل، محمد رشـــيد (ســـبتمبر ١٩٧٩). أثر التجـــارة والرّحلة في تطوّر المعرفة الجغرافية عند العرب، نشرة دورية يصدرها قســـم الجغرافيا بجامعة الكويت، والجمعية الجغرافية الكويتية.

القزويني، أبو عبد اللـــه محمد بن زكريا الكوفي (٢٠٠٠). عجائب المخلوقات والحيوانات وغرائب الموجودات، ط١، بيروت، منشورات مؤسسات الأعلمي.

القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد بن ســـعدالدين بن عمر (١٩٩٨). الإيضاح في علوم البلاغة، ط٤، بيروت، دار إحياء العلوم.

كراتشكوفسكي؛ إغناطيوس يوليانوفيتش (٢٠٠٨). تاريخ الأدب الجغرافيّ العربيّ، ط٢، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، تونس، دار الغرب الإسلامي.

الكنانـــي، صباح خلـــف (٢٠١٢). جغرافية المـــدن في كتب التراث الجغرافيّ العربيّ الإســـلامي، مجلة التراث العلمي العربيّ، العدد ١. جامعة بغداد، مركز إحياء التراث العلمي العربيّ.

المقدسي، محمد بن أحمد (٢٠٠٣). رحلة المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ط٣، تحرير وتقديم: شـــاكر لعيبي، أبو ظبي، الإمارات، دار السويدي للنشر والتوزيع.

الموافي، ناصر عبد الـــرزاق (١٩٩٥). الرحلة في الأدب العربيّ حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مصر، دار النشر للجامعات المصرية، مكتبة الوفاء.

مودّن، عبد الرحيـــم (٢٠٠٦). الرحلة المغربية في القرن التاســـع عشر، مســـتويات السرد، ط١، أبو ظبي، الإمـــارات العربيّة، دار السويدي للنشر والتوزيع.

بلقيـــدوم، عبد الحق مملكة الإســـلام من خـــلال الأدب الجغرافيّ العربيّ، موقـــع أنفاس: https://anfasse.org اطّلعت عليه يوم ٢٠٢١/١/٥.

مونس، محمد زباري (٢٠١٣). التدوين الجغرافيّ عند العرب، قبل الإســـلام وحتى ســـقوط الدولة العباسية، دراســـة في الجغرافية التاريخيـــة، بغداد، العراق، العدد ٥ كانون الأول، مجلة دراســـات تاريخية.

ميكيـــل، أندريـــه (١٩٨٣). جغرافية دار الإســـلام البشرية؛ حتى منتصف القـــرن الحادي عـــشر، الجزء الأول، ترجمـــة: إبراهيم خوري، دمشق، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

نـــواب، عواطف بنت محمد يوســـف (٢٠٠٨). كتـــب الرحلات في المغرب الأقصى، الرياض، السعودية، دارة الملك عبد العزيز.

وهيبة، عبـــد الفتاح محمـــد (١٩٩٥). جغرافية المســـعودي بين النظرية والواقع من الأدب الجغرافيّ في التراث العربيّ، الاسكندرية، منشأة المعارف.